

المظاهر البلاغية في سورة يوسف

الدكتور حميد رضا مشايخي (الكاتب المسؤول)

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران

Mashayekhi@umz.ac.ir

الدكتور مصطفى كمالجو

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران

kamaljoo@umz.ac.ir

أرشد ثامر إبراهيم الخفاجي

طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة مازندران، إيران

Alkhfajyarshdthamr88@gmail.com

Rhetorical Aspects in Surah Yusuf

Dr Hamid Reza Mashayekhi (Responsible Writer)

Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature ,
University Of Mazandaran , Iran

Dr. Mostafa Kamaljoo

Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature ,
University Of Mazandaran , Iran

Arshad Thamer Ibrahim Alkhafaji

PhD student , Department of Arabic Language and Literature ,
University Of Mazandaran , Iran

الملخص:-

إن النحو أحد أهم المحاور البلاغية في النقد الأدبي وتعد الظواهر البلاغية النحوية من أبرز الفنون البلاغية الأدبية. وقد تناول الباحثون العديد من السور القرآنية بالدراسة البلاغية لكننا في هذا البحث رأينا أن ندرس سورة يوسف نظراً لما تمتاز به من جماليات اسلوبية وفنون بلاغية ودلالات واسعة، لذا نسعي في هذه الدراسة إلى رصد الفنون النحوية في سورة يوسف ومظاهر الانزياح النحوي فيها واستجلاء ما يشهه في ذلك البيان الخالد من قيم وأسرار ودلالات وجماليات فنية.

عند دراسة سورة يوسف وجدنا كمهاثلاً من الظواهر الفنية بمستوياتها المتعددة النحوية إلا أن هناك فنون قد تجلت بشكل أبرز ومن أبرزها: ظواهر الحمل الاسمية والفعلية، وأسلوب التقديم والتأخير، وأسلوب الذكر والحذف وأسلوب النداء على المستوى النحوي وقد كشفت هذه الظواهر عن بعض سمات شخصيات السورة فنرى شخصية النبي يعقوب وقد غلب عليه الحزن والقلق وبقي يتأرجح بين القلق والخوف والأمل والإيمان بقدر الله وشخصية أخوة يوسف وبغضهم الشديد ليوسف ﷺ وسعيهم الخبيث لكسب ود أبيهم وشخصية يوسف ﷺ ومكانته السامية لدى أبيه ونصرة الله تعالى له.

الكلمات المفتاحية: الظواهر النحوية، سورة يوسف، اسلوبية التقديم، الحذف والنداء.

Abstract:-

Grammar is one of the most important rhetorical themes in literary criticism, and grammatical rhetorical phenomena are one of the most prominent literary rhetorical arts. Researchers have dealt with several Qur'anic suras for rhetorical study, but in this research, we decided to study Surah Yusuf due to its stylistic aesthetics, rhetorical arts and broad connotations, so we seek in this study to monitor the grammatical arts in Surah Yusuf and the manifestations of grammatical displacement in it and to explore the values, secrets, connotations and artistic aesthetics of this timeless manifesto.

When studying Surah Yusuf, we found a huge amount of artistic phenomena at various levels of grammar, but there are some arts that have manifested themselves in a more prominent form, most notably: The phenomena of noun and verb phrases, the style of introduction and retardation, the style of mention and omission, and the style of calling on the grammatical level. These phenomena revealed some of the characteristics of the characters of the sura, as we see the character of the Prophet Jacob, who was overcome with grief and anxiety. The character of Joseph's brothers and their intense hatred for Joseph and their relentless endeavour to win the favour of their father, and the character of Joseph and his exalted position with his father and God's support for him.

Key words: Grammatical phenomena, Surah Yusuf, present tense, ellipsis and appeal.

المقدمة :-

جاء في تعريف الانزياح في مقاييس اللغة أن: "الزء والياء والحاء أصل واحد، وهو زوال الشيء وتنحيه، يقال: زاح الشيء يزح، إذا ذهب" (ابن فارس، مادة زاح) كما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: "انزاح انزياحاً، فهو منزاح، والمفعول منزاح عنه، وانزاح الشيء: زاح، ذهب وتباعد، وانزاح عن مقعده: تنحى عنه وتباعد." وهكذا، فالانزياح في اللغة يرتبط بالذهاب والتباعد والتنحي، وفي كل هذا تغيير لحالة معينة وعدم الالتزام بها. (أحمد مختار، ١٩٩٨، ص ١١٤)

أما في تعريف اصطلاح الانزياح فقد قيل أن "الانزياح خروج عن المألوف والمعتاد، وتجاوز للسنائد والمتعارف عليه والعادي، وهو في الوقت نفسه إضافة جمالية يمارسها المبدع لنقل تجربته الشعورية للمتلقي والتأثير فيه، ومن ذلك لا يعد أي خروج عن المألوف وتجاوز للسنائد وخرق للنظام انزياحاً إلا إذا حقق قيمة جمالية وتعبيرية (شكري، نقد ١٩٩٩، ٢٣) وقد تبنى هذا المفهوم عدد من الباحثين والنقاد، ومنهم جون كوهن الذي يرى أن الشرط الأساسي والضروري لحدوث الشعيرة هو حصول الانزياح، باعتباره خرقاً للنظام اللغوي المعتاد.

يجدر التنويه إلى أن الانزياح رغم أنه مصطلح حديث ارتبط بالأسلوبية وبالشعرية الحديثة، فإن للمفهوم الذي يدل عليه جذوراً بلاغية تعود إلى البلاغة اليونانية، كما نجد عند أرسطو الذي كان يفرق بين اللغة العادية المعروفة والشائعة، وبين اللغة الغريبة غير المألوفة، مؤكداً أن الثانية هي اللغة الأدبية لأنها - كما يرى كوينتيليان - تعبير عن الحركية والتجدد والحياة، على عكس اللغة العادية الدالة على السكون والنمطية المملة (ويس، ٢٠٠٥، ص ٨٢).

كما أن من خلال دراستنا للأدب العربي التليد يمكننا القول أيضاً إن الانزياح ظاهرة مهمة في اللغة العربية؛ فهو وسيلة لتوسيعها، وأداة فنية وجمالية عرفتها اللغة منذ القديم؛ حيث نجد أن العرب قديماً تنبهوا للظاهرة، ولو بمصطلحات أخرى أهمها العدول؛ كما نجد عند ابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، والقاضي الجرجاني، وابن رشيق القيرواني، وغيرهم.

الانزياح هو خروج الكلام عن نسقه المثالي المألوف، أو هو الخروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفواً الخاطر لكنه يخدم النص بصورة أو باخري وبدرجات

متفاوتة. يعتبر الانزياح من اهم الظواهر التي يمتاز بها الاسلوب الأدبي من غيره؛ لانه عنصر يميز اللغة الأدبية ويمنحها خصوصيتها وتوهجاً والقاءً، ويجعلها لغة خاصة تختلف عن اللغة العادية، ولذلك نرى كبار نقاد الأدب من امثال سبترز وجروج مونان وتودورف وجان كوهن يتخذون من ظاهرة الانزياح في النص الأدبي أساساً للبحث في الخواص الاسلوبية التي تميز بها مثل هذا النص. (كوهن، ١٩٨٦، ص ١٦)

إن أهم الباحث الاسلوبية يتمثل في رصد انزياح الكلام عن نسقه المألوف أو كما قال جان كوهن رصد الانتهاك الذي يحدث في الصياغة، والذي يمكن بواسطته التعرف على طبيعة الاسلوب الأدبي، بل ربما كان هذا الانتهاك هو الاسلوب ذاته وما ذاك إلا بسبب أن الاسلوبيين تعاملوا مع اللغة على اساس أنها مستويين الاول مستواها المثالي ويتجلى في هيمنة الوظيفة البلاغية على اساليب الخطاب والثاني مستواها الابداعي الفني الذي يخترق الاستعمال المألوف للغة وينتهك صيغ الأساليب الجاهزة ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات اسلوبية وجمالية تحدث تأثيراً خاصاً في المتلقي. (عبدالمطلب، ١٩٩٦، ص ١٩٨).

فالمستوى المثالي أو العادي هو الذي يعتمد النحو التقعيدي في تشكيل عناصره، كما يعتمد في تنسيق هذه العناصر، ثمة الترابط بينما يقول به النحاة وما يقوله به اللغويون ظهور مثالية اللغة في استخدامها المألوف، وهي مثالية افتراضية اكثر منها تطبيقية واقعية ولعل هذه المثالية الافتراضية هي التي كانت وراء كثير من المقولات النظرية في الدراسات النحوية واللغوية كتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف وسائر القواعد النحوية واللغوية التقليدية .

وعلي خلاف شريحة اللغويين والنحاة فان النقاد والبلاغيين عنوا باللغة الفنية وحرصوا على تأكيد صفة مخالفة لابد من تحقيقها في استخدام الفني للغة، هذه الصفة هي المغايرة أو الانزياح عن القواعد والمعايير التي تحكم اللغة العادية اي أن النقاد والبلاغيين لا يتلفتون إلى ما يحرص عليه النحاة واللغويون من أبرز الكلام في صورة مثالية تلتزم بالقواعد في صرامة ودقة، بل هم يؤكدون على انتهاك هذه المثالية والانزياح عنها في الأداء. غير أن هذا لا يعني انصراف النقاد والبلاغيين أو جهلهم بمثالية المستوى العادي من اللغة الذي اقامه النحاة واللغويون، بل أن هذا المستوى بمثاليته لم يغيب عن اذهانهم لحظة واحدة لانهم جعلوا منه مرآة يتعكس عليها انزياح المستوى الفني ومعياراً يقيسون عليه مقدار هذا الانزياح. (النوري، ٢٠٠٨، ص ٨).

فالانزياح يحدث عندما يكسر الخطاب والنص الأدبي القواعد اللغوية الموضوعية أو يخرج عن النمط المألوف أو يبتدع صيغاً واساليب جديدة أو يستبدل تعبيرات جديدة بأخرى قديمة أو يقيم نوعاً من الترابط بين لفظين أو أكثر أو يستخدم لفظاً في غير ما وضع له اصلاً، وهذا الخروج عن الاستعمال العادي للغة يطل عليه عدة مصطلحات أبرزها مصطلح الانزياح (سليمان، فتح الله، ٢٠٠٠، ص ١٩)

أنواع الانزياح:

تنقسم مستويات الانزياح إلى عدة مستويات هي المستوى الدلالي، المستوى الإيقاعي والمستوى النحوي الصرفي وهي كالتالي: (صلاح، ١٩٩٨، ص ٢١٢)

المستوى الصرفي: أما المستوى الصرفي فهو يهتم بالجوانب العاطفية والدلالية للأفعال والاسماء بحيث يعتني بالمفارقات الدلالية بين الاسماء والافعال وما لها من دلالات مختلفة كما في استخدام صيغ أسماء بدل أخرى بهدف التعبير عن غرض خاص.

المستوى النحوي: وهي الانزياحات التي تحدث في الظواهر النحوية والتي تخرج عن قواعد النحو العربي ومعايير المألوفة كما في ظاهرة التقديم والتأخير والحذف والذكر.

المستوى الصوتي: وهو يهتم بالانزياحات التي تحدث في الظواهر الصوتية التي تحدث نوعاً من التأثير الإيقاعي و توحى بموسيقاها كالترار اللفظي والمعنوي والحروف.

المستوى الدلالي: وهو أن يستخدم مفردة بدل أخرى لدلالة بلاغية.

جماليات الانزياح:

وتظهر جمالية الانزياح في خلق أمكانيات جيدة للتعبير، والكشف عن علاقات لغوية جيدة تقع في علاقة اصطدام مع ما يتوافق معه الذوق، وما تأسس في معرفة الإنسان الأولية، ومسألة الجيد والغريب التي تعكسها ظاهرة الانحراف، ما هي إلا ترسيخ للشعرية والتي هي هدف كل عمل أدبي، وهي توقع من خلال دلالتها الكامنة أثراً كبيراً في نفس المتلقي (ربابعة، ٢٠٠٣، ص ٦٩)

ويمكن الأثر الجمالي للانزياح عند كثير من الأسلوبين الدهشة التي تولدها مفاجأة القارئ بما لم يعهده ولم يتوقعه من التراكيب اللغوية، والقارئ من طبعه الملل بسرعة، فلا بد بين الحين

والآخر أن يكون للمؤلف القدرة الكافية لخلق نوع من الإثارة من خلال مفاجأة القاري، وهذه المفاجأة لا تحدث ألا من خلال التمسك بظاهرة الانزياح (بودوخه، ٢٠١١، ص ٢٠).

الرغبة في الوقوف على صور ظاهرة الانزياح وأبعاده الدلالية والجمالية في التعبير القرآني حدت الكثير من الباحثين إلى تناول السور القرآنية إذ أن الانزياح ظاهرة بلاغية تبرز وجوهاً من وجوه الإعجاز القرآني وتدلل على ما وهب المولي تعالى لغة التنزيل من إمكانات متعددة وقدرات فائقة في التصرف في التعبير والتعدد في الدلالات.

تعد ظاهرة الانزياح من أكثر الظواهر الأسلوبية تردداً وأوسعها انتشاراً في النص القرآني وقد تناول الباحثون العديد من الصور القرآنية لكن لم يتناول أحد ظاهرة الانزياح في سورة نوح رغم ما تمتاز به من جماليات أسلوبية وفنون بلاغية ودلالات واسعة لذا نسعي في هذه المقالة إلى رصد صور الانزياح النحوي في السورة واستجلاء ما يشهه في ذلك البيان الخالد من قيم وأسرار ودلالات وجماليات فنية.

نبذة عن سورة يوسف:

نزلت سورة يوسف على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، والتي جاءت لتروي أحداث قصة نبي الله يوسف عليه السلام وإخوته، وقصة سجنه، ثم توليه خزائن مصر، ويصل عدد آيات السورة إلى مائة وإحدى عشرة آية، وتأتي السورة الكريمة في الترتيب الثاني عشر بين سور القرآن الكريم، وهي السورة التالية لسورة هود من حيث النزول. (الخازن، ٢٠١٠، ص ٧٣).

يعود السبب في تسمية سورة يوسف بهذا الاسم نظراً لإقتصارها على ذكر أحداث وتفاصيل قصة سيدنا يوسف عليه السلام كاملة، وتعتبر هذه من المميزات التي تنفرد بها هذه السورة الكريمة عن سائر سور القرآن الكريم، ويشار إلى أن أسم سيدنا يوسف عليه السلام قد ورد في السورة أكثر من خمس وعشرين مرة، وتقع السورة في الجزء الثالث عشر في الحزبين الرابع والخامس والعشرين. (ابن عاشور التونسي، ٢٠٠٨، ص ٤٥).

سبب نزول سورة يوسف نزلت السورة على رسول الله ﷺ لتعلمه ما لاقاه سيدنا يوسف عليه السلام من محن وشدائد وكيد الرجال والنساء في زمنه بدءاً من إخوته، وصولاً إلى قصته مع زوجة عزيز مصر، وما أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه من صبر على ذلك ثم

فرج عظيم، لتكون عبرة للمسلمين ولرسول الله ﷺ من هذه القصة العظيمة. يقال بأن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ نُقْصُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ قَالَ: أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَصَصْتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿الرَّهْطُكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿نَحْنُ نُقْصُصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الْآيَةُ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ حَدَّثْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ قَالَ كُلِّ ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ بِمَوَاضِعِ السُّورَةِ يَتَمَحَوَّرُ مَوْضُوعُ سُورَةِ يُوسُفَ حَوْلَ قِصَّةِ النَّبِيِّ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا أَحْلَقَهُ بِهِ إِخْوَتُهُ وَآخَرِينَ مِنْ مَحْنٍ وَمَكَائِدَ، فَلَقِيَ خِيُوطَ الْمَكَائِدِ تُحَاكُّ لَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَتَارَةً مِنْ إِخْوَتِهِ وَتَارَةً مِنْ أَهْلِ بَيْتِ عَزِيزٍ مِصْرَ، وَكَمَا تَأَمَّرَتْ عَلَيْهِ النِّسَاءُ بِمَا فِيهِنَّ زَوْجَةٌ عَزِيزٍ مِصْرَ، وَتَحْمِلُ الْمَعَانَاةَ وَالشَّدَائِدَ وَالضِّيقَ حَتَّى أَفْرَجَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَصْبَحَ عَزِيزًا مِصْرَ.

نختصر قصة سيدنا يوسف بن يعقوب عليه السلام بأنه قد لقي الويلات والغدر والخيانة من أقرب الناس إليه وهم إخوته البالغ عددهم أحد عشر أخاً، وكانوا قد رموه بالبئر ليتخلصوا منه وأخبروا والدهم بأن الذئب قد أكله وهم في غفلة عنه، وأخذوه بعض السيارة بعد أن انتشلوه من البئر إلى عزيز مصر، وكان يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يحضروا له قميص يوسف ليتأكد من صدقهم إلا أنهم جلبوا له قميصاً ملطخاً بدم شاه لكنه اكتشف كذبتهم نظراً لكون القميص سليماً وليس ممزقاً، وكان يعقوب عليه السلام فاقداً للبصر وعند عودة يوسف عليه السلام أرتد إليه بصره. أما في قصر العزيز فقد دبرت زوجة العزيز بعد أن افتتنت بيوسف عليه السلام مكيدة له، وأدعت بأنه يراودها إلى نفسه وسُجن سبع سنوات، وظهر الحق أخيراً بأن قميصه قد قُدم من دبر وهذا دليل على براءته وإدانة زوجة العزيز.

يحاول الباحث أو يسعى في هذا المقال الإجابة على السؤال المتمثل: ما هي أبرز أنواع الفنون الأدبية المتجلية في سورة يوسف؟

خلفية البحث:

هناك العديد من البحوث والمقالات التي تم تدبيجها في فن الانزياح ومن ابرزها:

١- عباس زاده، حميد، (١٤٣٣ق)، جمالية الانزياح البياني في المفارقة القرآنية،

دراسات في العلوم الانسانية؛ هذه المقالة تستجلي بمنهج وصفي تحليلي الملامح الجمالية للمفارقات القرآنية التي تصور الكفار في مواقفهم المختلفة. تؤدي المفارقة دورها في جمالية القرآن بمؤثرات جمالية، هي: التغريب، والإيجاز، وإبراز اللفظ والمعني في ضدهما، والصدق، والتهويل، والتهكم.

٢- غفوري، محمد، انزياح الصورة الشعرية لدي نازك الملائكة مجلة الأدب والعلوم الانسانية، لبنان، ٢٠٢؛ ويتجلى للقارئ في نهاية هذا المقال أن الشاعرة تمكنت من استعمال الانزياح الدلالي بشكل مطرد للإبداع وتحسين الصورة الشعرية؛ نتيجة هذه الدراسة تدل على أن العدول عن المعيار والنزوع إلى الانزياح الدلالي لدي فدوي طوقان يبرز قدرتها الخيالية في توظيف الطاقة التعبيرية الكامنة في اللغة العادية التي تحيد عندها وتدخل في خرق السياق المألوف.

٣- إيمان شعبان محمد عوض، الانزياح في شعر أبي نواس، كلية البنات الإسلامية، جامعة الأزهر بأسبوط (العدد السابع والثلاثون)، (٢٠١٨م)؛ وقد توصل إلى نتيجة مفادها أن الانزياح قد تجلي في شعر أبي نواس بأنواعه الثلاثة، الانزياح الدلالي، الانزياح التركيبي، والانزياح الإيقاعي وقد ارجع سبب الانزياح إلى خروج الشاعر عن كل المألوفات لأسباب ترجع إلى نشأته.

٤- آسيا، تغليسا، جماليات الانزياح في شعر نور الدين درويش، الجزائر، جامعة بسكرة، ٢٠٠٧؛ وهذا البحث توصل إلى نتيجة تتمثل في أن الانزياح في ديوان الشعر بأن عنصر يميز اللغة الشعرية ويعطيها خصوصيتها وتوهجها وألقها، ويجعلها لغة خاصة تتميز عن اللغة العادية فتصبح ليس مجرد وسيلة بل غاية في ذاتها بما تحمله من دلالات خفية يتطلب الوصول إليها قراءة متأنية لفك رموز النص الشعري، وذلك لما للانزياح من تأثير جمالي وأبعاد إيحائية في تشكيل جماليات النصوص الأدبية التي تحدث تأثيراً كبيراً في المتلقي.

٥- كما ان هناك بعض الدراسات أهتمت بالجانب المضموني من مثل (سورة يوسف دراسة تحليلية للكاتب أحمد نوفل) إلا أنها تناولت الجانب المضموني بعيداً عن دراسة الجانب الفنية وهذا ما نرومه في دراسته الحالية.

تحليل الانزياح النحوي في السورة:

هناك آيات عديدة تجلي فيها المستوى النحوي في هذه الصورة المباركة ومن أبرزها ظواهر استخدام الحذف والذكر والتقديم والتأخير واسم النداء وقد حملت دلالات فنية ونقاط بلاغية تتمثل في إبراز التحبب والاستعطاف والحزن والتصبر والاستمرار والثبوت.

النداء أسلوب لغوي وظيفته تنبيه المنادي وحمله على الإلتفات. وتؤدي الوظيفة أدوات تتناسب مع قرب المنادي وبعده من المنادي فإذا كان المنادي قريباً لا يتطلب لندائه أن ترفع الصوت أو أن مدته أتيّت بالهمزة التي تنادي بها القريب. أما إذا كان المنادي متوسط البعد فلا بد لندائه من مدّ الصوت ورفع استعين بالياء (المخزومي، ٢٠٠٥، ٢١٧)

أن النداء يقيم علاقة حوار بين المنادي والمنادي وذلك لإغراض تفهم من سياق الكلام، وفيه حث على الاهتمام بموضوع الخطاب، فضلاً عن توجيه الانظار إلى المنادي، وقد يخرج النداء عن معناه الأصلي لدواعٍ واغراض كثيرة بلاغية من أبرزها الدعاء والتحبب والتحسر والزجر وكل لك أنما يفهم من السياق وقرائن الأحوال (صحيح خلف، ٢٠١٢، ٢٢٠)

من أبرز الآيات التي تضمنت انزياح المناداة قوله تعالى على لسان يوسف وهو يشرح رؤياه لأبيه **يُوسُفُ**:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مَرَّيْنِهِمَا لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف، ٤)

من النقاط الهامة أن يوسف بدأ حكايته بمناداة يا أبت وهذا النوع من النداء يدل على وجود تعاطف وتواد بين المنادي والمنادي؛ ذاك التعاطف الذي يستمر معناً طيلة القصة ويمنحها طاقة هائلة من الدفأ والحيوية.

وكذلك نشاهد ظاهرة الانزياح الندائي في حديث الأخوة مع أبيهم لأخذ بنيامين:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنْعِنَا الْكَيْلَ فَأَمْرٌ مِنَّا أَنَّا نَكْتَلُ وَلِنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف، ٦٤)

فَلَمَّا رَجَعُ الْأَخُوَّةُ إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنْعِنَا الْكَيْلَ أَي: إن لم ترسل معنا أخانا،

فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ أَي: ليكون ذلك سبباً لكيلاً، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ من أن يعرض له ما يكره.

وهنا نشاهد أن الأخوة في موضع تزلف عند أبيهم بهدف اصطحاب بنيامين إلى يوسف عليه السلام فنجد عبارة (أبانا) في بداية الكلام تسعى لكسب الودّ والعطف وعبارة أخانا في نص الآية تحاول منح الثقة والاطمئنان لأبيهم. لكن جواب يعقوب عليه السلام في ما يلي يحمل كما من التأنيب لما مضى في قصة يوسف عليه السلام و تذر من ارسال أخيه بنيامين معهم.

ظاهرة التقديم والتأخير:

يعد التقديم والتأخير من أهم الميزات الأسلوبية، وليس ذلك لكون تقدم شيء بعينه عن شيء آخر بل للدور الدلالي والجمالي الذي يلعبه هذا الخرق من تقديم وتأخير لهذا فإن التقديم والتأخير في الجملة العربية من المباحث الهامة التي حظيت بعناية كبيرة من قبل النحاة والبلاغيين، فالتقديم والتأخير في المنظور النحوي هما اللذان يخرقان عرف الجملة العربية ويشوش ترتيبها ويشير أتباه المحلل (السد، ٢٠٠٧: ١٧٥) والتقديم أما يكون بتقديم أسماء على بعضها أو جمل على بعضها وهذا ما تجلي في السورة بكثرة وهو غالباً ما يحمل دلالت بلاغية تتمثل في التأكيد والعناية والاهتمام ولفت الانتباه.

نشاهد انزياح التقديم والتأخير في الاسماء في حديث يعقوب عن فضل الله تعالى في حق آل إبراهيم:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ لِقَابِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّكَ عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ (يوسف، ٦)

نلاحظ هنا في عبارة (إبراهيم واسحاق) تقديم وتأخير نحوي فقد قدم ذكر إبراهيم وأخر إسحاق ليوحي من خلال ذلك إلى عظمة إبراهيم وتفوقه على ابنه إسحاق إذ أن العادة أن يذكر الأب الاحداث ومن ثم الاقدم لكن القران خالف ذلك ليرمز إلى أهمية إبراهيم. كما أن استعمال مفردة الاحاديث للدلالة على الرؤيا فيها ملاحظة لغوية لطيفة فقد اختير لفظ الاحاديث المشتق من فعل الحدث ليدل على جزمية و واقعية حدوث تلك الرؤي في حال أن اهل مصر استخدموا لفظ الكلام بدل الرؤيا.

عَنْهَا مُعْرَضُونَ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿يوسف، ١٠٧﴾

توجد عدة ملاحظات بلاغية ذات دلالات فنية في هذه الآيات أولها أن الآية الأولى ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قدم جملة ولو حرصت على خبر ما النافية ودليل تقديمها هو بيان شدة حرص النبي ﷺ على إيمان الناس كما أن مجيء الباء على الخبر يؤكد شدة تعنتهم و نفورهم من الايمان كما أن في قوله وكأين من أية في السماوات والارض ملاحظة نحوية تتمثل في تقديم السماوات على الارض وسبب ذلك أن آيات السماوات اكثر من آيات الارض.

يمثل الحذف ظاهرة بارزة في النسيج الخطابي للغة العربية سواء كان ذلك على مستوى النص البشري أم على مستوى النص الإلهي المعجز، فقد يدعو مقتضي الدلالة المتكلم لأن يحذف جزءاً من كلامه لتحقيق غاية ما. حيث يكون الحذف في بعض المواضع الكلامية أولي من الذكر في بلوغ المراد «فيخرج الكلام به كالذهب المصفى والجوهر المجلو» (البلاغي، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٣٠) وكما قال عبد القاهر الجرجاني: «هو فن عجيب الأمر، شبيه بالسحر فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذ لم تنطق، وأتم ما تكون مبنياً إذا لم تبين» (الجرجاني، ١٩٩٥، ج ١، ص ١٢١).

فمن فوائد التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام، لذهاب الذهن في كل مذهب، وتشوفه إلى ما هو المراد فيرجع قاصراً عن إدراكه فعند ذلك يعظم شأنه ويعلو في النفس مكانه، ومنها طلب الإيجاز والاختصار وتحصيل المعنى الكثير في اللفظ القليل، ومنها زيادة لذة بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر، كان الالتذاذ به أشد وأحسن، ومنها موقعه في النفس من موقعه على الذكر ولهذا قيل: ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره (الزركشي، ١٩٨٨م، ص ١٢٠).

ومن مظاهر الانزياح النحوي ايضاً ظاهرة الحذف لأغراض بلاغية كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِعِوَاءِ جَمْعِهِمْ أَنْ يَعْطَلُوهُ فِي عِبَادَةِ الْإِلَهِ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِرُوا بِأَمْرِ اللَّهِ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف، ١٥).

مما يلاحظ هنا ان الله جل وتعالى قد جمع بين جملتين مباشرة وهما جملة (اجمعوا

أن يجعلوه في غيابة الجب) وجملة (أوحينا اليه لتنبئهم) والجملتان بداية وختام حكاية يوسف اجمع فالأخوة رموا كيده وفي نفس الوقت أوحى الله مباشرة اليه بالنجاة واخبرهم بمؤامرتهم الدنيئة في المستقبل ويلاحظ كذلك أن الجملتان قد عطفتا بحرف الواو العاطفة وهذا الحرف يستخدم عندما لا يكون بين الجملتين فاصل زمني واستخدامه هنا يدل على عناية الله بعبده يوسف ﷺ وأهتمامه به بحيث ما أن اصابته المصيبة حتى بشره بالنجاة.

ونشاهد أيضا ظاهرة الحذف في حديث يعقوب بعد تذكر يوسف ﷺ: ﴿وَوَكَّلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْنَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ * قَالُوا تَاللَّهِ فَنَتَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، ٨٦)

هنا نجد شدة حزن يعقوب وصبره الجميل من خلال المفردات فلا تكاد تجد كلمة ولا جملة الا وهي تحمل حزنه ومواساته على يوسف ﷺ فتولي يعقوب يدل على شدة أساه كما أن فعل ايضاض العين بصيغتها المشددة يدل اشتداد الحزن كما أن الجمل التالية تعبر عن الحزن تعبيراً صريحاً. كما أن هناك ملحظ بلاغي فقد يكون من وظائف الحذف مراعاة حال النفس في محتتها وشدتها، وإذ النفس مجبولة على اختصار الكلام والحديث عندما تصاب بكرب، إذ من طبعها انها تعاف طول الكلام في هذه اللحظات، ولا تقوي على بسط الكلام، فكان السياق القرآني يحذف من الكلام مراعاة لحال النفس. انظر كيف أن الحذف في المقطع الآتي يصور لنا حال يعقوب ﷺ حيث تفجعت على يوسف فحذف اكثر من جملة: وتولي عنهم وقال يا أسفي على... فهو كظيم إذ اصل الكلام: تولي عنهم وانصف بعيداً وذهب يبكي ويشكو إلى ربه. (الجوسي، ٢٠٠٢، ٣٢٥)

وكذلك نشاهد ظاهرة حذف الجواب في قول يعقوب بعد أن وجد ريح يوسف: ﴿وَكَمَّا فَصَلَ الْغَمْرُ قَالَ أَبَوَاهُ إِنِّي لأَجِدُ مَرْيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَقْتَدُونَ﴾ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف، ٩٥)

من أبرز الملاحظات البلاغية ذات الدلالة النفسية ما نراه من حذف جواب لولا في قوله تعالى على لسان يعقوب اني لأشم ريح يوسف لولا ان تفندون اي لولا تصفوني بالخرف وضعف الذاكرة لأخبرتكم عن شعوري بوجوده فحذف الجواب هنا كشف لنا عن حالة سيدنا يعقوب ﷺ النفسية حيث كان راغباً في أخفاءها حتى لا يتهم. كما يلاحظ هنا كذلك

تصادم الرؤيتين فنري من جانب يعقوب ﷺ وهو يؤكد رأيه في شعوره بريح يوسف من خلال جملة اسمية و حروف أن ولام الموكدة مما يكشف عن ايمانه التام بذلك وفي الجانب الاخر نرى اهله وهم يرفضون ذلك باغظ الايمان المتمثل في تاء القسم والجملة الاسمية وأن ولام الموكدة.

ومن مظاهر الحذف ما يبدو في قوله تعالى عن وصف حال يعقوب بعد ضياع يوسف: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف، ١٨)

هنا قد تنبه يعقوب ﷺ لكذب أخوته لذلك فأجابهم بجملة تبدأ بحرف اضراب بل لينسف كل ادعائاتهم لكنهم بعد ذلك اختار الصبر ومعبراً عن ذلك بجملة فصبراً جميل والجملة في اصل تركيبها النحوي فنصبر صبراً جميلاً وأن حذفها يدل على عظمة صبر يعقوب ﷺ من جانب وصعوبة اتمام الجملة واختصارها في ظل الموقف النفسي الذي يقاسيه من جانب اخر ثم في الاخير يستعين يعقوب ﷺ بالله بدل مواجهة ابنائه لضعف حيلته امامهم مما يكشف عن صعوبة موقفه ومعاناته الشديدة.

ومن مظاهر الحذف البلاغي قوله تعالى على لسان أخوة يوسف في سبيل اثبات برائتهم: ﴿أَمْرِجُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ * واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ (يوسف، ٨٢)

نشاهد هنا في عبارة (القرية) عدول بلاغي حذف فيها المتكلم ذكر اهل القرية واكتفي ذكر القرية، والقرية كما هو معلوم لا تسأل لكنه تعبير يكشف لنا عن معاني نفسية، لإخوة يوسف هذه المرة كانوا صادقين وارادوا أن يبرهنوا لأبيهم بانهم صادقون فيما خبروه، لكن ماضيهم يقف امام هذا الاثبات، فكيف اذن لهم أن يعبروا عن صدقهم النفسي هذا التعبير وجملة اسال القرية تكفل لنا بكشف تلي المعاني النفسية التي أرادوا ايصالها إلى أبيهم، إذ كأن الخبر لشهرته وشيوعه قد علمت به القرية بكاملها بحجارتها وتربتها واهلها، ولم يعد أدني شك فيها، فهي في وضوح بحيث لو سأل الجمادات لنطقت بالحقيقة، وهذا لا شك يكشف عن البعد النفسي الحقيقي للمتهم، فهو يستثمر كل وسيلة ممكنة، ويوظفها للتعبير والافصاح عن براءته. (الجوسي، ٢٠٠٢، ٣٩٨)

ظاهرة الجملة الاسمية والفعلية:

صرح علماء البلاغة أن الجملة الاسمية تفيد الثبات والاستقرار، وقد تخرج عن هذا الأصل في بعض الحالات، فتدل على الحدوث والتجدد كما إذا كان خبرها جملة فعلية، أو وجدت قرينة على دلالة الحدوث والتجدد، وكان خبرها مفرداً أو جملة اسمية، أما الجملة الفعلية، فهي دالة في أصل وضعها على الاستمرار والحدوث، فإذا كانت مبدوءة بفعل مضارع مثلاً دلت على حدوث الأمر في المستقبل مثلاً، أو كانت مبدوءة بالفعل الماضي دلت على حصول الشيء في الماضي. (العتيق، ١٩٩٨: ٦٢)

ونرى ظاهرة استخدام الجملة الاسمية لغرض بلاغي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ﴾ (يوسف، ٢٨)

فَلَمَّا رَأَىٰ الحاكم قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة. فقال لها سيدها: إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف ﷺ؛ يلاحظ هنا أن العزيز عندما رأى القميص قد من دبر جزم قائلاً أن الفعل من كيدك وقد اتى به جملة اسمية مؤكدة واردف ذلك بجملة اسمية أخرى تتمثل في أن كيدكن عظيم ليدل باسمية الجملتين والمؤكدات عن ثبوت ثقته واطمئنانه في براءة يوسف.

كما تأتي الجملة الفعلية أحيانا لغرض بلاغي كما في وصف حالة الكفر لدى الناس: ﴿وَكَايُنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِنَّا وَهُدٍ مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف، ١٠٦)

هنا نلاحظ الآيات تصف تمادي الناس في كفرهم وعدم انتباههم لآيات الله تعالى وقد أكد ذلك المعنى فب قوله (يمرون عليها وهو عنها معرضون) فنشاهد أن مرور الكفار على الآيات يأتي جملة فعلية بفعل مضارع ليدل على استمرار رؤيتهم في حال أن حديث اعراضهم عن تلك الآيات اتى بصيغة جملة اسمية ليدل على ثبوت الاعراض وعدم الاكتراث في نفوسهم فعدم الاعتبار ثابت في النفوس رغم استمرار وتجدد الآيات وهذا يدل على تعنت الكفار وعنادهم.

النتيجة:

تضمنت سورة يوسف كشأن كل السور القرآنية على كم غفير من الفنون البلاغية التي أثرت نصّها ومنحته المثير من الدلالات البلاغية الجمالية. من بين الكم الهائل من الظواهر الأسلوبية برز المستوى النحوي ولعب دوراً فنياً وحمل ملامح الانزياح الفني ومن ابرز تجلياته ظاهرة الجملة الاسمية والفعلية، واسلوب التقديم والتأخير، ظاهرة الحذف والذكر، واسلوبية النداء. وقد كشفت هذه الظواهر عن بعض سمات شخصيات السورة فنرى شخصية يعقوب وقد غلب عليه الحزن والقلق وبقي يتأرجح بين القلق والخوف والامل والايمان بقدر الله وشخصية أخوة يوسف وبغضهم الشديد ليوسف ﷺ وسعيهم الخبيث لكسب ود آبائهم وشخصية يوسف ﷺ ومكانته السامية لدى ابيه ونصرة الله تعالى له.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. ابن فارس، مقاييس اللغة، دار الفكر، ١٩٧٩.
٢. ابن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، تونس، دار التونسية، ٢٠٠٨.
٣. الخولي، أمين، مناهج تجديد في النحو والبلاغة، بيروت، دار المعرفة، ١٩٦١.
٤. الألوسي، محمود أبو الشاء. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٥. البلاغي، الهدي إلى دين المصطفى، ط٣، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٥م، ج٢.
٦. بودوخة، مسعود، الأسلوبية وخصائص اللغة الشعرية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١.
٧. بكري شيخ، أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، بيروت دار الملايين، ١٩٧٣.
٨. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، ط١، بيروت، دار الكتب العربي، ١٩٩٥م، ج١.
٩. الجيوسي، عبدالله محمد، التعبير القرآني الدلالة النفسية، دمشق، دار الفوثناني، ٢٠٠٦.
١٠. الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠.

١١. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م، ج٣.
١٢. فضل، صلاح، علم الأسلوب ومبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.
١٣. عبدالمطلب، محمد، البلاغة والاسلوبية، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤.
١٤. السد، نور الدين، الأسلوبية وتحليل الخطاب، الأردن: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، (٢٠٠٧م).
١٥. سليمان، فتح الله، الأسلوبية مدخل نظري، الدار الفية للنشر، ٢٠٠٠.
١٦. سامح رابعة، موسى، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها. كويت: جامعة الكويت. ٢٠٠٣.
١٧. شكري، إسماعيل، نقد مفهوم الانزياح، مجلة فكر ونقد، العدد ٢٣، ١٩٩٩.
١٨. صبيح خلف، عبد على، النداء دراسة أسملوية، مجلة أبحاث ميسان، المجلد التاسع، العدد السابع عشر، ٢٠١٢.
١٩. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ترجمه محمد مولي، دار توبقال للنشر، المغرب، ١٩٨٦.
٢٠. النوري، احمد غالب، اسلوبية الانزياح في النص القرآني، رسالة لنيل درجة الدكتوراه جامعة مودة، ٢٠٠٨.
٢١. مختار عمر، أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨.
٢٢. المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٣. ٢٠٠٢.
٢٣. المخزومي، مهدي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٥.
٢٤. ويس، محمد، الانزياح من خلال الدراسات الأسلوبية، المؤسسة الجامعية للدراسات، ٢٠٠٥.

